الإسلام عدو الشرك والنفاق

للأستاذ محمد عبد الرحمن الجديلي

رأى المشرع الإسلامى : أن يُبْقِىَ على فريضة الحج ، والحج معروف فى تضاعيف الزمان ومن أقدم العهود ، أبقى عليه الشرع الإسلامى إبقاء مهذباً مطهراً خالصاً من أدران الشرك ومن دنس الاعتقاد الرجس . أبقاه الإسلام ، بعد أن أفرغ عليه من جلال التوحيد ، وأفاض عليه من معانى التقوى ما جعله منسكاً حافلاً بالخير .

وأى خير أوفر من شهود المنافع وتعرُّف شؤون الأقطار الإسلامية ، وشدّ أواصر المجتمع وإعداد النفوس لتلقِّى أسمى الفيوضات واستلهام الهدى واجتماع الكلمة ؟

ونحن بسبيل أن نبين كيف اختار الإسلام موسم الحج ميداناً لإصلاح اجتماعى خطير ؟ هـذا الإصلاح هو : مهاجمة النفاق والكشف عن المنافقين وتمييزهم عن المجتمع ونبذهم ، بعيدين عن المؤمنين لكى يسلم للأمة خلقها وتصح عناصرها ...

* * *

أنزل الله على رسوله — صلى الله عليه وسلم — فى ختام ما نزل من القرآن سورة « براءة » ، أو السورة « الفاضحة » التى فضحت الشرك وكشفت عن المنافقين ، أنزلها الله فى السنة التاسعة من الهجرة فى موسم الحج .

وقد كان محمد صلى الله عليه وسلم — من قبل ذلك — يعرف خصومه من المشركين السافرين فيحذرهم وينكل بهم . ثم كان يعرف — أيضاً — أن بين أتباعه بعض المنافقين ، فكان لا يجبههم ولا يكشف عن أضغانهم ولا يبرز للمسلمين دخائل نفوسهم ، إبقاء على الدعوة الإسلامية وهى فى دور النمو والتكوين ، حتى لقد بلغ من قسوة تلك الحالة على محمد صلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه ، أن صاروا فريسة لمكايد النفاق وهدفاً لمؤامرات المنافقين يدلون المشركين على عورات المؤمنين ويوضعون خلالهم يبغونهم الفتنة ومع هذا ، هم لاصقون بالجماعة المحمدية ...

« يحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ، ولكنهم قوم يفرقون »

وقد بلغ من خطر النفاق على المجتمع يومذاك — أن وقعت أزمة حربية عنيفة للرسول — صلوات الله عليه — ولأصحابه ، فكانت سانحة للمنافقين ، أرجفوا فيها بموت محمد عليه السلام لتثبيط العزائم ، وتمكين الهزيمة ، والمؤمنون فى ساعة عصيبة يجمعون شملهم ويربطون على قلوبهم ، والرسول عليه السلام ثابت فى مكانه لا يريم

تلك الحوادث أبانت عن أنه لا يزال بين المجتمع الإسلامى — بل وسط جماعة المسلمين — قلوب مطوية على الإحن تتربص بالإسلام وبالرسول الدوائر

وإنها لحال تنغص على المسلمين أمورهم ، وتهدد كيانهم وتقلقل مجتمعهم

وقد كاد صبرهم ينفد يوم وقف واحدٌ من هؤلاء يعيب على رسول الله صلى الله عليه وسلم قسمه للصدقات ويغمز العدالة المحمدية . هذا الرجل هو « ذو الخويصرة التميمى » دفع به النفاق ، فخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : إعدل يا محمد ... ولا ، والله ، ما قصد ذو الخويصرة عدلاً ولا طلب حقاً . ولكنه قصد إلى أن يشكك الناس فى العدالة المحمدية ، وينبه الأطماع ، ويثير الإحن . فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : « ويلك ، من يعدل إذا لم أعدل ؟ »

واستمع لهذا الحوار الرجل المؤمن حقاً عمر بن الخطاب ، فعرف أنها دسيسة . فقال : يا رسول الله ، ائذن لى فأضرب عنقه ، فأخذ صلى الله عليه وسلم يُهَدِّئُ من نفس عمر ، ويذهب عنه الغضب ، ويقول : لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه

ونزل فى تلك الحادثة من السورة « الفاضحة » قول الله تعالى :

« ومنهم من يلمزك فى الصدقات فإن أعطوا منها رضوا ، وإن لم يُعطَوْا منها إذا هم يسخطون »

بقى النفاق — هذا الوباء الأخلاقى — يأكل فى أجزاء من جسم المجتمع ، ولولا صدق اليقين ، ومناعة الجسم ، لأودى النفاق بالدعوة الإسلامية

* * *

إن لله مواقيت تنتهى لديها أمور وتبدأ من عندها أمور . فلما أذن الله بافتضاح هـذا النفاق ، وشاء للمنافقين أن يشهّروا ويسلّموا ويؤخذوا بسيماهم ، ثم يعزلوا — مرضى موبوئين — عن بقية المجتمع السليم ، اختار — عز وجل — لذلك وقتاً علا فيه شأن الإسلام ، وتمت له الكلمة ، وأمحن المسلمون فى أعدائهم أسراً وقتلاً واستيلاء وغلبة . فليس يخيفهم أن يبتروا الأعضاء السقيمة العليلة

وكانت الحياة المحمدية المباركة قد آذنت بالانقضاء ، ولا بد من صيانة مجتمعه وشريعته ودينه من هذا المرض ، مرض النفاق المدمّر الفتاك

عند ذلك أنزل الله سبحانه وتعالى السورة « الفاضحة » كما ورد عن ابن عباس رضى الله عنه : نزلت تفضح النفاق ، وتكشف عن المنافقين ، وتصور ألوانهم وأقوالهم ، وتطلع المؤمنين على دخائل نفوسهم ، وتنشر للملأ مطويات سرائرهم ... وقد كانوا من قبلها يخافون ذلك ويحذرونه

« يحذر المنافقون أن تُنَزَّل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم » ولكن الله أوقع بهم ، فكان ما يحذرون ووقع ما يرهبون

* * *

اختار المشرع الإسلامى غزوة من غزوات المسلمين ، جعلها اختباراً أخيراً للمنافقين . وهى : غزوة تبوك ، آخر الغزوات فى حياة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وكان الوقت عسيراً والبلاد جدباء ، والحر لافحاً والشقة بعيدة ، والأعداء هم الروم الأقوياء الأغنياء

هنا أخذ النفاق يطل برأسه ، وينفث فى العقد ، ويبعث التخاذل ، ويحبب التقاعد بين الجيوش الإسلامية . فقال جماعة المنافقين وعلى رأسهم كبيرهم « عبد الله بن أبى » : « أيغزو محمد بنى الأصفر (الروم) مع جهد الحال ، وشدة الحر ، والبلد النائى ؟ أيحسب محمد أن قتال بنى الأصفر لعب ولهو ؟ والله ... لكأنى أنظر إلى أصحابه مُقَرَّنين فى الأصفاد »

ثم أخذ المنافقون يقولون : لا تنفروا فى الحر ، قل نار جهنم أشد حرًّا لو كانوا يفقهون

وهكذا جعلوا يعتذرون عن الخروج بأعذار تافهة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلها ، حتى عاتبه القرآن فى ذلك وعفا عنه : « عفا اللهُ عنك ، لِمَ أذنتَ لهم حتى يتبيَّن لكَ الذينَ صَدَقوا وتعلمَ الكاذبين »

عرّفت السورة « الفاضحة » أو سورة « براءة » المنافقين ، وحددت أوصافهم : فمنهم الذين يؤذون النبى ويقولون هو أُذُنٌ ومنهم من يلمزك فى الصدقات . ومنهم من عاهد الله ثم أخلف عهده . ومنهم ، ومنهم ...

ثم خاطب الله رسوله عليه السلام الخطاب الحاسم فى شأنهم فقال : « سيحلفونَ بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتُعْرِضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون »

ولقد نكل الله بالشرك فى تلك السورة فسميت « المنكلة » وأزرى واحتقر النفاق ورسمه بأنه رجس ، فافتضح النفاق

وجاء صدر تلك السورة قضاء حاسماً على بقية الشرك ، وإبادة لمرضه الخبيث فى أنحاء الجزيرة العربية

فقد اجتمع إلى الشرك مآثم وأوزار وشناعات ، لا مناص من القضاء عليها تطهيراً للمجتمع وإصلاحاً للأمة

* * *

وفى السنة التاسعة للهجرة أمَّرَ النبى عليه السلام على الحج « أبا بكر » الصديق . فلما نزلت السورة — المنكلة الفاضحة — بعث صلى الله عليه وسلم ابن عمه على بن أبى طالب على ناقته العضباء ليقرأ فى موسم الحج على الناس كافة صدر السورة المنزلة ، قضاء على الشرك والمشركين ، فلما دنا على من أبى بكر سمع أبو بكر رغاء الناقة ، فوقف وقال : هذا رغاء ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما لحقه علىّ قال له أبو بكر : أمير أم مأمور ؟ قال : مأمور

فلما كان يوم الحج الأكبر — يوم النحر — عند جمرة العقبة قام على فقال : « أيها الناس ، إنى رسول رسول الله تعالى إليكم » فقالوا : بماذا ؟ فقرأ « براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزى الله ، وأن الله مخزى الكافرين ، وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم

الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله » إلى آخر الآيات الثلاثين أو الأربعين من السورة

ثم قال : « أمرت بأربع : ألا يقرب البيت بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ولا يدخل الجنة إلا كل نفس مؤمنة ، وأن يتم كل ذى عهد عهده »

وفى هذا الموطن الحاشد ، وبهذا البيان القاطع تقررت حياطة المجتمع ، وصيانة التوحيد ، كما تقرر — فى أثناء السورة — إبراء المجتمع من داء النفاق بإقصاء المنافقين وتعرفهم بسيماهم ؛ ثم نبذهم أحياء أو ميتين

« ولا تُصَلِّ على أحد منهم مات أبداً ، ولا تَقم على قبره »

« يحلفون لكم لترضوْا عنهم ، فإن ترضوْا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين »

* * *

انتهى أمر النفاق ، وانتظم شأن المجتمع الإسلامى . فلما كان العام التالى ، أراد صاحب الشريعة عليه السلام أن يحج ، وترامى ذلك إلى أقطار الجزيرة ، فانثال الناس من كل حدب ، حتى بلغ الحجيج مائة ألف أو يزيدون . وفى يوم الحج الأكبر ، خطب صاحب الشريعة خطبته الجامعة التى بين فيها أصول الدين ، وحقوق الإنسان وأعلن فيها المساواة ، وحقن فيها الدماء وبين الحدود ، وحشد فيها الفضائل الإسلامية

وزاد فى جلال الموقف ورهبته إشعار النفوس أن محمداً عليه السلام يودع المسلمين ويتوقع اقترابه من اليوم المحتوم ، ويستشرف إلى الرفيق الأعلى

قال صلى الله عليه وسلم : « الحمد لله ، نحمده ونستغفره ونتوب إليه . ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا . من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ... أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، وأحثكم على طاعة الله ، وأستفتح بالذى هو خير . أما بعد :

أيها الناس ، إسمعوا منى أبيِّن لكم ، فإنى لا أدرى... لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا، فى موقفى هذا

أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام، إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، فى شهركم هذا، فى بلدكم هذا . ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد

فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى الذى ائتمنه عليها . وإن ربا الجاهلية موضوع

أيها الناس : إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه ، ولكنه رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم . ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد

إن لنسائكم عليكم حقاً ، فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف . وإنما النساء عَوانٍ أخذتموهن بأمانة الله ، فاتقوا الله فى النساء ، واستوصوا بهن خيراً

أيها الناس ، إنما المؤمنون إخوة ، فلا يحل لامرىء مال أخيه إلا عن طيب نفسه . ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد

فلا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم أعناق بعض ؛ فإنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا : كتاب الله . ألا هل بلغت ؟ اللهم اشهد

أيها الناس . إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ؛ كلكم لآدم ، وآدم من تراب . أكرمكم عند الله أتقاكم . ليس يُعرف فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى . ألا هل بلغت ؟ قالوا : نعم : قال : فليبلغ الشاهد منكم الغائب ... »

بتلك الخطبة الحافلة بأسمى المعانى الإنسانية ، تمت كلمة الله صدقاً وعدلاً ، فاكتمل أمر الدين ، وأتم الله نعمته على المؤمنين ، وقد أنزل الله فى أعقاب ذلك من سورة (المائدة): «اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتى، ورضيت لكم الإسلام ديناً » .

أقام صلى الله عليه وسلم بمكة بعد ذلك عشرة أيام . وأخذته نوازع الشوق وهو فى موطنه الأول (مكة) إلى موطنه الثانى ، إلى دار الهجرة ، فسار إلى المدينة ...

ولما أشرف عليها ، وبدت أعلامها كبَّر ثلاثاً وقال :

« لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شىء قدير ... آيبون ، عابدون ، ساجدون ، لربنا حامدون ، صدق الله وعده ، ونصر عبدَه ، وهزم الأحزاب وحده

محمد عبد الرحمن الجديلى

معهد التناسليات

معهد التناسليات تأسيس الدكتور ماجنوس هيرشفلد فرع القاهرة بعمارة رقم ٤٦ شارع ... تليفون ٥٢٥٧٨ يعالج جميع ... والشذوذ المبكر . ويعالج بصفة خاصة زيادة الحساسية طبقاً لأحدث الطرق العلمية والعيادة من ١٠-١ ومن ٤-٦ . ملاحظة : يمكن إعطاء نصائح بالمراسلة ...

سجل تجارى ٥٢٢٧